نَظْرة جديدة إلى نَظْم القرآن

ميشيل كويبرس [1]

1– ولادة طريقة جديدة في التفسير

طُرِحت مسألة وَحدة نَظْم القرآن منْذ فَجر الإسلام بل منذُ زمن الرسول نفسه كما يُشير النَصّ القرآني (25، 32): (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا.)

وظَهرَت في القرنين الثالث والرابع مجموعة من الكتب – المفقودة حاليًا – حول *نَظْم القرآن* ومنها كتاب الجاحظ (ت 255 هـ) وقد تبعها مؤلفات إعجاز القرآن، وأوَّلُها كتاب *بيان إعجاز القرآن* للخطابي (ت 388 هـ) الذي وصل إلينا كاملاً وجعل النَظم أحد الركائز الثلاثة لفصاحة القرآن الرفيعة: (واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته.) [2]

---

[1] المؤلف (Michel Cuypers) عضو في معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان (IDEO) بالقاهرة.
قام بالترجمة الدكتور يوسف حبيب نقولا حبيب.

[2] الخطابي، *بيان إعجاز القرآن* في *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن* للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي / تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، القاهرة: دار المعارف 1955، ص 24.

وقد أشارت كُتُب الإعجاز مرارًا إلى مفهوم النَظْم أو فن ترتيب الكلمات والجُمَل فناقشته ونقَّحَتهُ في مؤلَّفات الإعجاز ولا سيما مؤلَّفات الرماني (ت 386 هـ) والباقلاني (ت 403 هـ) وابن الجبار (ت 415 هـ) وصولاً إلى *دلائل إعجاز القرآن الكريم* لعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) الذي قدَّم تفسيرًا فريدًا لمفهوم النظم يحاكي به أحدث النظريات اللُغويَّة. وبرفضه لمفهوم الازدواجية بين اللفظ والمعنى فقد اعتبر أن النَظْم التركيبي للنص هو بِعَيْنه العامل الأساسي في فصاحة القرآن، حيث لا تجد الكلمات معناها إلا داخل النَظم وَحْدَه وذلك بفضل العلاقات المتبادلة التي يكوِّنها بناء النَصّ. وبناءًا على ما تقدَّم فقد وَضع الجرجاني نظريَّة مطوّلة للنَظْم التركيبي للقرآن بل للغة العربية ذاتها. بيْدَ أن الأمثلة التي قدّمها الجرجاني اقتصرت على وحدات نصِّيَّة صغيرة: كالجُمل أو الآيات أو الأبيات. إلاَّ أنَّه لم يهمل تأثير السياق العام على معنى الكلمات، وإن افتقد مفهومه هذا إلى الكثير من الدقَّة. فهو لم يَسْعَ إلى تحليل البُنية الكاملة للنص على غرار ما قام به في حالة الجُملة. ومن ثَمَّ فهو لم يحسم طبيعة العلاقة القائمة بين الآيات والسُور القرآنية.

وفي كتاب *بيان إعجاز القرآن* يجري الخطابي نقدًا للقرآن فيقول: (لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيّز وقبيل لكان أحسن نظماً وأكثر فائدةً ونفعاً) [3]. وهو يجيب بدوره على هذا النقد في سياق حديثه بشأن الآية القرآنية المذكورة أعلاه قائلاً: (إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعمّ لنفعه) [4]. فهو لا يسْعى إذن إلي تقديم مَفهوم لوَحدة النَصّ تتخطَّى تَنَوُّع الأجزاء التي تُشكِّل السورة الواحدة. ويبدو أن الفضل

---

[3] مكرر، ص 49.

[4] نفس المرجع.

يعود إلى بدر الدين الزركشي (ت 734 هـ) الذي كان أوّل مَن ضمَّن في العلوم القرآنية دراسةَ العلاقات المُتَبادَلة بين الآيات وبين السُور. فقد سَعَى في كتابه *البُرهان في علوم القرآن* في فصل *معرفة المناسبات بين الآيات* وفصل *ترتيب وضع السور في المصحف* [5] إلى فهم ترتيب النَصّ: أي كيف تُكَمِّل كل آية ما سبقها أو كيف تتوافق معه ؟ والمِثْل يُقال بالنسبة للسُوَر: ما الذي يربط بين السورة الواحدة وما جاورها من سُوَر ؟ إذ يتبيَّن لنا – كما يوضِّحه الزركشي – أن بداية كل سورة تتوافق تمامًا مع نهاية السورة التي تسبقها.

وبعد مرور قرن من الزركشي، ألَّف برهان الدين البقاعي (ت 885 هـ) تفسيرًا للقرآن يتميَّز بعنوان يوضِّح بجلاء الاتجاه عينه: *نَظْم الدُرَر في تناسب الآيات والسور*. بل ذكَرَ البقاعي الزركشي في مقدِّمة تفسيره واقتبس نصًّا لفَخر الدين الرازي في سياق تفسير سورة البقرة (الآية 285) يكْشِف عن انتباه الرازي في تفسيره إلى الروابط التي تربط بين الآيات:

> ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب كما قيل:
> والنجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم في الصغر. [6]

---

[5] الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*،البابي الحلبي، القاهرة 1957، 1، ص 35 وتابع و360 وتابع.

[6] فخر الدين الرازي، *التفسير الكبير*، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1983، 7، ص 128.

وفي كتاب *إتقان في علوم القرآن*، يكرِّر السيوطي بدوره في الفصل "في مناسبة الآيات والسور" [7] فحوى ما قاله الزركشي من قَبْل ولكن دون التوصُّل إلى نظريَّة حقيقية بشأن نَظْم النَصّ. وقد أشار محمد حسين الذهبي في كتابه *التفسير والمفسِّرون* (عام 1961) إلى مُفكِّرين اهتمُّوا بإبراز الروابط بين الآيات والسور من أمثال خطيب الشربيني (ت 977هـ/1569مـ) مؤلِّف تفسير *السراج المُنير*، وأبو السعود (ت 982هـ/1574مـ) مؤلِّف *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*، والآلوسي (ت 1270هـ/1853مـ) مؤلِّف كتاب *روح المعاني* [8]. ولم تنجح أيٌّ من هذه المحاولات في بلْورة نظريَّة عامة حول نَظْم النَصّ القرآني. إذ اقتصرت أعمالهم على ملاحظات محدودة في الشكل تتمحور أساسًا حول الصلة القائمة بين الآيات والسور المتعاقبة: حيث اقتصر العمل على إبراز ارتباط الآية الأولى من السورة بالآية الثانية، ثم ارتباط الآية الثانية بالثالثة وهكذا إلى آخر السورة. واتَّبَعوا المنهج نفسه في إبراز علاقة السورة الواحدة بالأخرى. ومُجْمَل القَوْل قد اعتمد منهجهم على محاولة إبراز فكرة التسلسل المنطقي أكثر منه إبراز البُنية الحقيقية للنصّ.

وقد طرح بعض مفسري القرن العشرين الموضوع نفسه وسَعَوا إلى فهم تنظيم الأقسام المختلفة للنصّ وفهم ارتباط الواحد بالآخر. وهكذا حدَّد الشيخ السوري سعيد حوَّى (ت 1989 مـ) المنهج الذي سيسلكه في كتابه *الأساس في التفسير* ومضمونه دراسة تماسك أجزاء السور المختلفة، وحسب قوله في مقدمة تفسيره هو عملٌ لم يقم به أحدٌ من قبل. وبناءً على ذلك قام بتقسيم السور إلى

---

[7] السيوطي،*الإتقان في علوم القرآن* ، دار التراث، القاهرة 1387 هـ/1967 مـ، 3، ص 322-338.

[8] محمد حسين الذهبي، *التفسير والمفسرون*، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1371 هـ/ 1961 مـ، 1، ص 338، 342، 345، 350، 352، 361.

أجزاء ثم إلى أجزاء فرعية أطلق عليها *قسم*، *ومقطع*، *وفقرة*، *ومجموعة*، تمثّل وَحدات دلاليَّة تزداد صغرًا، ساعيًا إلى توضيح العلاقة الكامنة بين هذه الوَحدات بُغيَة التأكيد على تماسك السورة برُمَّتها [9]. و يُعتبر هذا الأمر خطوة حقيقية للأمام وإن ظلَّ يفْتقِر إلى الاستناد إلى نظريَّة أدبيَّة، ممّا جعل اقتطاع النَصّ في عدَّة مواضع مثارَ جَدَل.

غير أنه في الثمانينات أيضًا، وبينما كان سعيد حوّى يؤلِّف تفسيره كان أمين أحسن إصلاحي وهوعالم ومفسِّر باكستاني – ولغته الأردو – يقوم بدوره بتحليل القرآن في تفسيره *تَدبُّر القرآن* حيث تَوَصَّل إلى استنتاج مُثير للدهشة: فهو يعتبر أن غالبية السُوَر – إن لم تكن جميعها – تشكِّل أزواجًا موضوعيَّة [10]. والسورتان الأخيرتان (113 و114) تتشابهان بوضوح. كما تُشكِّل جميع السور الثمانِ السابقة لهاتين السورتين أزواجًا متضادَّة مَوْضُوعيًّا حيث يَتَقابَل مَوْقِف المؤمنين (سورة الإخلاص) وموقف الكُفَّار (من أمثال أبي لهب، سورة المسد). كما أننا نعلم أن سورة الضحى وسورة الشرح متشابهتان جدًا إلى حدٍّ دفع بعض المفسِّرين إلى اعتبارهما سورة واحدة. وتشهد الدراسة المُفَصَّلة للسور الثلاثين الأخيرة لدقَّة أطروحة أمين إصلاحي. والأمر صحيح بالنسبة للسورتين الطويلتين الأنفال والتوبة أيضًا. كما أنه يوجد العديد جدًا من المواضيع المشترَكَة التي تجمع بين السورتين النساء والمائدة. يقودُنا هذا إلى القول إن اكتشاف المفسِّر إصلاحي يُمثِّل إذن خطوة أولى نحو بلورة نظريَّة شاملة حول نَظْم القرآن على أساس مبدأ التوازِي.

أمَّا علماء الغرب فلم يشرعوا سوى في الثمانينات من القرن العشرين بالاهتمام بمسألة التنظيم الداخلي للسور وإن ظلَّت نتائجهم جُزئيَّة، ومن هؤلاء

---

[9] سعيد حوَّى، *الأساس في التفسير*، دار الإسلام، القاهرة 2003، 1، ص 30–31.

[10] Mustansir Mir, *Coherence in the Qur'ân. A Study of Islâhî's Concept of Nazm in Taddabur-i Qur'ân*, Indianapolis, American Trust Publications, 1986.

أنجليكا نويويرث [11] وبييركرابون دي كابرونا [12] اللذان تناولا السور المكِّيَّة من هذا المُنطلَق، وكذلك ماتياس زاهنيزر [13] ونيل روبنسون [14] اللذان تناولا بعض السور المدنيَّة. وقد اعتمد هذان العالِمان في تحليلهما على بعض المبادئ الحديثة لتفسير الكتاب المقدَّس.

ذلك أنه وبالتوازي مع تلك الأبحاث الجارية في أرض الإسلام ودون أدنى اتصال بها وَجَدَ دارسو الكتاب المقدَّس – من العلماء المسيحيين – أنفسَهم في مواجهة مع مشكلة مشابهة: وهي أن بعض نصوص الكتاب المقدَّس تَظْهَر بالفِعْل وكأنَّها تتألَّف من مجموعة من المقاطِع المستقلَّة نوعًا ما عن بعضها البعض. وهذا يَنْطَبِق على الكتب التي يطلق عليها اليهود والمسيحيُّون اسم الكتب النبويَّة والموجودة في الكتاب المقدَّس اليهودي – العهد القديم لدى المسيحيين –، ولكنه ينطبق على جزء كبير من كتب التوراة – أسْفار موسى الخَمْسة –، كما ينطبق على المزامير بَل وعلى الأناجيل أيضًا. وقد طَرَح هؤلاء العُلماء على أنفسهم مسألة تأليف وتناسق مُخْتَلَف الأجزاء في تلك النصوص.

أمَّا نُقطة الانطلاق نحو نظريَّة مَنْهَجِيَّة تَطَلَّبت قرنين ونصف كي تَتَبَلْوَر، فتمثَّلت في الاكتشاف الأوَّل لعالِم الكتاب المقدَّس روبرت لوث [15]، الانجليزي المنشأ، الذي نَشَر في عام 1753 كتابًا بعنوان *دروس في الشعر المقدَّس لدى العبرانيين*. وقد بيَّن في هذا الكتاب أنَّ مزامير الكتاب المقدَّس تتألَّف بأسرها من

[11] Neuwirth, Angelika, *Studien zur Komposition der mekkanischen Suren*, Berlin/New York, Walter de Gruyter, Studien zur Sprache, Geschichte und Kultur des islamischen Orients 10, 1981.

[12] Crapon de Caprona, Pierre, *Le Coran : aux sources de la parole oraculaire. Structures rythmiques des sourates mecquoises*, Paris, Publications Orientalistes de France, Arabiyya 2, 1981.

[13] Zahniser, A. H. Mathias, « Major Transitions and thematic Borders in two long Sûras: *al-Baqara* and *al-Nisâ'* », dans *Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'ân*, éd. I. J. Boullata, London/Richmond, Curzon Press, 2000, pp. 26-55.

[14] Robinson, Neal, *Discovering the Qur'an. A Contemporary Approach to a Veiled Text*, London, SCM-Press, 2003, pp. 201-223.

[15] Robert Lowth.

مفاصِل مُتَوازِية مُرتبطة فيما بينها بصلةِ تَرادُف أو تَضاد أو تَكامُل. ونجد هنـــا إذًا مبدأ الثُنائيَّة والتَوازي الذي أَعْلَن مؤخَّرًا عن وجودهِ في القــرآن المفسِّــرُ أمــين إصلاحي، ولكن على المستوى الأصغر من الآيات:

ترادُف: الربُ بارٌ في كل طرقه
وصَفيّ في جميع أعماله مز 17/145

تَضاد: الرب يحفظ جميع محبيع
ويستأصل جميع الأشرار مز 20/145

تَكامُل: عيون الجميع ترجوك
لترزقهم طعامهم في أوانه مز 15/145

(ويُقدِّم المِفــصل الثاني سَبَب رجاء الجميع: ذلك أن اللهَ يمنحُ الطعامَ في حِينِه).

وفي الوقت ذاتِه، لاحَظَ عالِمٌ آخر، وهو الألماني بنجـــال [16]، كثــرة تــردُّد التوازي العكسي (أو الصورة المعكوسة) في الكتاب المقدَّس:

أسبِّح الرب **طول حياتي**
ما دمت حيا *أعزف لإلهي* مز 2/146

أسكب أمامه **شكواي**
عن ضيقي أمامه *أكشف* مز 3/142

وبعد أن أَشَرْنا إلى التوازي والصورة المَعْكُوسَة يجدر بنا التَنْويه كذلك إلـــى وجه نظمي ثالث وهو النظم المِحوري الذي يتمثَّل في إدخال عُنصر مركزي بـــين مُنْحَدَرَيْ التوازي.

أنقذني **من أعدائي**
يا إلهي
ومن الذين يقومون عليّ *احمني* مز 2/59

[16] Johann-Albrecht Bengel.

وفيما بعد لوحِظ الانتشارُ الواسع لأوْجُه التأليف هذه في الكتاب المقــدَس، لا على مستوى الآيات فقط، بل على مستوى أَوْسَع بين مجموعة من الآيات أيضًــا، وهكذا على عدَّة مُستويات، وحتى الكِتابِ بأكمله. وقد صُنِّفَت الآن مبادئ التــأليف هذه في نظريَّة أُطلِق عليها في البداية عنوان *البلاغة الكتابية* ثمَّ مــؤخَّرًا عنــوان *البلاغة الساميَّة* حينما لوحِظَ أنها تنطبق على النصوص الساميَّة القديمة غير الكتابيَّة أيضًا.

وبالفعل، في الثمانينات، واستنادًا إلى تلك المبادئ، قام فريقٌ من الباحثين في بيروت – يتكوَّن من مُسلمَيْن ومَسيحيَّيْن – بتحليل سِلْسِلَة من النصــوص الكتابيَّــة وبعض الأحاديث الشريفة من البخاري. وفي كتابهم المنشور باللغــة العربيَّــة [17] بِعُنوان *طريقة التحليل البلاغي والتفسير : تحليلات نصوص من الكتــاب المقــدس ومن الحديث النبوي الشَّريف*، قاموا بتوضيح كيفيَّة بناء كافة هذه النصوص علـــى أُسُس مبادئ التوازي ذاتها التي أوضحناها. وقد اكتشفوا هكذا من جديــد مبــادئ البلاغة الساميَّة التي تختلف كثيرًا عن البلاغة اليونانيَّة التي وَرَثَها الغرب والعــالم العربي على السواء. وعلينا أن نفهم هنا كلمة بلاغة بمفهوم فن تأليف الخطــاب لا بمفهوم فن تزيين الخطاب بأوجُه التزيين، كما هو شائعٌ في مفهومنا. فكما أن تأليف الكلمة أو الجملة يوافق قواعد النَحْو، فإن مُجْمَل الخِطاب يُوافِق هو أيضًــا قواعِــد التأليف. هناك إذًا نوعٌ من *نَحْو الخِطاب* أو *بلاغَة التأليف*.

[17] رولان مينيه، لويس بوزيه، نائلة فاروقي، أهيف سنّو، *طريقة التحليل البلاغي والتفسير. تحليلات نصوص من الكتاب المقدس ومن الحديث النبوي الشريف*، دار المشرق، بيروت 1993.

واعتمادًا على هذا المنهج قُمنا بتحليل نَظْم ثلاثين سورة قرآنية في مجموعة من المقالات نُشِرَت بالفرنسية، وفي آذار/مارس 2007 صدر لنا في فرنسا كِتــابٌ يُحلِّل سورة المائدة بجُملتها [18].

وتسمح طريقة التحليل هذه بإظهار التماسك الشكلي للنص من جهة، ولكنهــا توجِّه من جهة أخرى القارئ إلى تفسير مُعَيَّن. ومن هنا تتجلَّى أهمِّيَّتها في التفسير.

وسنقوم بتقديم شرح لهذا المنهج انطلاقًا من نَصّ سورة القارعة الذي رغــم قصره الشديد يَفي غرض تقديم مُعظم مبادئ التفسير الساميّ الذي يبدو في نظرنــا أنه قد ينْطبِق جيِّدًا على مُجمَل النَصّ القرآني. ويلي هذا العرض تقديمُ بعض الأمثلة الأخرى على سبيل التلخيص.

ويضطرُّنا النهج التحليلي إلى عرض النَصّ القرآني مؤقَّتًا بطريقة اســتثنائيَّة لتوضيح الصِلات الحاضرة بين الأجزاء المختلفة للنص. ولا شك أن إعادة كتابــة النَصّ هذه ليست سوى مرحلة مؤقَّتة في إطار عمل تحليلي لا يسعى سوى إلى فهمٍ أفضل للنَصّ في صورته المعتادة.

---

[18] Cuypers, Michel, *Le Festin. Une lecture de la sourate al-Mâ'ida*, Lethielleux, collection Rhétorique sémitique, Paris, 2007.

وجميع المراجع التي تشير إلى مقالاتنا مُدَوَّنة في القسم الخاص بمراجع هذا الكتاب.

2– التحليل البلاغي لسورة القارعة

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

في اللوحة الأولى، أُعيدَت كتابة النَصّ على هيئة مفاصِل [19] متعاقِبَة. وهــذا هو المستوى البلاغي الأوّل: أي مُستوى المفاصِل. ونلاحظ أن ترقيم الآيات فيه لا يوافق حتْمًا تقسيم المفاصل، حيث إنّ المفاصل توافق تراكيب تعبيريَّة أو وحــدات دلاليَّة.

أمَّا اللوحة الثانية فهي توضِّح المستوى البلاغي الثاني حيث تجتمِــع بعــض المفاصِل في أزواجٍ مُتَوازِية:

[19] فيما يلي قائمة المصطلحات المستعملة للدلالة على مختلف مستويات النص: مفصل – فرع – جزء – قسم – مقطع – سلسلة – شعبة – كتاب.

الْقَارِعَةُ (1)

مَا الْقَارِعَةُ (2)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)

نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

نلاحظ أنَّ المفاصِل (1، 10، 11) تبقى مُستقلَّة، في حين تُكـوِّن المفاصـل الأخرى أزواجًا مُتَوازِية أو فُروع: لا تحتوي الآيتان 1 و11 سوى على عنصر أو عنصريْن فقط، دون تكوين جُملة. كما يهدف إيجاز التعبير إلى جذْب انتباه القارئ أو المُستمِع.

تُكرِّر الآيتان 2 و3 تناول السؤال ذاته على نحوٍ ما. والتكرار هنا له تـأثير بلاغي واضح.

وقد بُنِيَت الآيتان 4 و5 بالطريقة ذاتها وتتكاملان في المَعنَى: ففي يوم الدين سوف يتشتَّت الناس لأن الجبال ستتفتَّت. والتشابه بين الآيتين وما يتضمَّنه من تأثير الواحدة على الأخرى يُضاعِف صَدى الفاجِعة التي تعبِّر عنها كلاًّ منهما.

وتتميَّز الآيات 6-7 و8-9 بوَحدة البنية وتضاد المعنى تأكيدًا للحَدّ الفاصـل بين مصير الأبرار ومصير الكُفَّار.

وعليه فإن الآيات في مجموعها تُكوِّن ستَّة أفْرُع. ثلاثة أفْرُع تتكـوَّن مـن مِفصَل وحيد، أمَّا الثلاثة الأخَر فتتكوَّن من مفصَلَيْن اثنين. وهنا يجدر بنا الإشـارة

إلى قاعدة راسخَة في البلاغة الساميَّة ومفادُها أن المستوى الأعْلى من الأفْرُع وهو الذي سنُطلِق عليه لفظ "الجُزء" لا يُمكنُه أن يحتوي على أكثر مــن ثلاثــة أفْــرُع. وبالفعل فإن اللوحة الثالثة توضِّح لنا أن هذه الأفْرُع الستْ يمكن أن يُعادَ جَمْعُها في مجموعتين اثنتين أو جزئين يتكوَّن كلاً منهما من ثلاثة أفْرُع.

الْقَارِعَةُ (1)
مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)
نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

وإذا تناولنا المضمون وَجَدْنا أن الجزئين يتألَّفان بأسلوب التَوازي: حيث يــتمّ وَضْع عُنصر في الأفْرُع الأولىَ (القارعة / الهاوية)، فيتبعهُ سؤالٌ في الأفْرُع الثانية (ما أدراك ما...) لِيَنْتَهي بالإجابة عليه في الأفْرُع الثالثة (اليوم / نار حامية).

أمَّا من جهة الشَكْل فَنَجِد أن الجزئين قد نُظِّما في تــوازٍ معكــوس (اللوحــة الرابعة):

الْقَارِعَةُ (1) *مَا الْقَارِعَةُ* (2) *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ* (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) --------------------------------------- فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* (10) **نَارٌ حَامِيَةٌ** (11)

ففي الطرفين (1 / 11) يظهر عُنصر مُستَقِل، بدون جُملة، وهو: (القارعة / نار حامية). ويتأكَّد تناظُر العُنْصُرَين من خلال ما لديهما من تَقفِيَة: ـَاـــِ ـــَة

أمَّا المَوْضِع (2–3 / 10) فتَظهر فيه الأسئلة المتطابقة جُزئيًا.

أمَّا الآيات المتجاورة في وسط السورة (4–5 / 6–9) فتكوّن فَرْعين اثنــين متوازيين تمامًا.

أمَّا على المستوى الدلالي فإن السورة تتحدَّث إذَن في شأن يوم الدين وذلــك في جزئين متوازِيَيْن مَعْكوسَيْن، حيث يَصِف الأوَّل منهُما الاضْطراب الكَوْني فــي ذاكَ اليَوْم، ويَصِف الجُزْء الثاني الدَيْنُونَة وجَزاءَها.

وتَكتَسِب هذه السورة توازنًا كاملاً وحيًّا في الآن ذاته، بالإضافة إلى كل مــا يميِّز القرآن من إيجاز شديد في التعبير، وذلك بفضل التوازي النظْمــي المــزدوج الذي يتألَّف من توازٍ على مستوى المضمون وتوازٍ معكوس على مستوى الشكل.

3- بنية سورة يوسف

وتُعَدُّ سورة القارعة مثالاً بيِّنًا على كيفيَّة بناء السور الأخرى بما فـــي ذلـــك السور الطويلة. إذ يتكرَّر نفس النوع من التوازي في مستويات النَصّ العليا أي في مجموعات من الآيات تزداد طولاً وصُولاً إلى السُورة بأكملها.

وعلى سبيل المثال تتألَّف سورة يوسف من اثنتي عشر سلسلة مُوَزَّعـــة فـــي توازٍ معكوس كما يوضّحه الجدول التالي:

أ- استهلال (الآيات 1-3)
ب- رؤيا يوسف (4-7)
ج- نِزاع يوسُف واخوتِه: حيلَة الاخوة ضِدَّ يوسف (8-18)
د- ترْقِية يوسف النسبيَّة (19-22)
هــ- مُحاوَلَة المرْأة إغــْواء يوسف (23-34)
و- يوسف في السجن، يفسِّر رؤا سجينين، ونبي التوحيد (35-42)

و′- يوسف في السجن، يفسِّر رؤيا الملك (43-49)
هــ′- خاتمة إغــواء المرأة: ردّ الاعتبار ليوسف (50-53)
د′- ترقِيَة يوسف النهائية (54-57)
ج′- نِزاع يوسُف واخوتِه: حيلَة يوسُف على اخوتِه (58-98)
ب′- إتمام رؤيا يوسف (99-101)
أ′- خاتِمة (102-111)

4- بنية سورة الفاتحة

وتتألَّف سور أخرى من أشكال أُخرى من التوازي إلاَّ أن جميع مستويات النَصّ تتَّسم بوجود عناصر النَظم الثلاث نفسها: التوازي والتوازي المعكوس والبناء المحوري.

ويتميَّز نَظْم سورة الفاتحة بالتوازُن الكامل إذ يتألَّف من جزئين متوازيين يتكوَّن كلاً منهما من فرعين ويتألَّف كل فرع من مِفصَلين، ويرتبطَ الجُزءان بواسطة جزء مركزي صغير مُكَوَّن من فرع واحد.

بِسْمِ اللَّه	**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (1)
الْحَمْدُ لِلَّهِ	***رَبِّ الْعَالَمِينَ*** (2)
	الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)
	مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ (أ)
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (ب) (5)

اهْدِنَا *الصِّرَاطَ* الْمُسْتَقِيمَ (6)
صِرَاطَ الَّذِينَ ***أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ*** (أ)
غَيْرِ ***الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ*** (ب)
وَلَا **الضَّالِّينَ** (جـ) (7)

ففي الجزء الأول لا يقْتَصِر الأمر على وجود توازٍ بين المفصلين 1 و 2 (مع تكرار اسم الله في كل مفصل) وبين 3 و4 أيضًا، بل يوجد تواز آخر فيما بيْن المفصلين الأولين من الفرعيْن (أي المفصلان 1 و3) وهما متطابقان جزئيًّا، وفيما بيْن المفصلين الثانيين (2 و4) وبداخلهما لفظان مترادفان هما "رَب" و"مالك"، وهما مضافان في كل مرة إلى مُضاف إليه: ("العالمين " و"يوم الدين").

أماَّ الفرعان المتوازيان (6–7أ/7ب–7جـ) في الجزء الثالث فيوجد تضـاد بينهما: ففي الفرع الأول نجد أن المؤمن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، أمّا في الفرع الثاني فهو يسأله ألاَّ يهديه صراط الضالين. ونلاحظ صلة التكامل بين مفصلَي الفرع الأول: حيث يشرح المِفصل الثاني معنى عبارة "الصراط المستقيم" التي أُعلِن عنها في المِفصل الأول. أماَّ مِفْصَلا الفرع الثاني اللذان يبدأ كلاهما بصيغة النفي ("غير" / "ولا") فمن الممكن اعتبار وجود صلة ترادف بينهما: "الضالين" هم "المغضوب عليهم" من الله.

ولا يتضمَّن الجزء المركزي (5أ–ب) سوى فرع واحد فقط مُتوازٍ ومُترادِف: فالمِفصلان يبدءان بـ "إيَّاك" ويتبعهما فِعلان ينتميان لمجال دلاليّ واحد هو مجال الصلاة: فالتعبُّد والطلب ("نستعين") هما العملان الأساسيَّان للصلاة. وكما هي العادة في البلاغة السامية في البنى المحوريَّة يقوم الجزء المركزي بدور محور الانطباق بين الجزئين الآخرين اللذين يربط بينهما:

- فالمفصل الأوَّل ("نعبُد") يشير إلى الجزء الأوَّل وهو بالكامل عبارة عن تعبُّد إلى الله من خلال بعض الأسماء الحسنى؛
- أمَّا المِفصل الثاني ("إيَّاك نستعين") فيعلِن عن الجزء الثاني وهو عبارة عن صلاة طلب فحواها الاستنجاد بالعَوْن الإلهي.

وبناءًا على ما تقدَّم يمكننا القول إنه يوجد تكامل بين الجزئين الطَرَفِيَّيْن لسورة الفاتحة وأن الجزء المركزي المُوجَز الذي يشير إلى هذا التكامل يقوم بدور الربْط بين الجزئين.

5– تلاحُم السُور المركَّبَة (سورة المائدة وسورة المدّثّر)

تتميَّز الأمثلة التي تناولناها حتى الآن بوضوح وَحدة الموضوع أو الوَحدة القصصيَّة (كما هو الحال في سورة يوسف). وإن تطبيق قواعد النَظْم ذاتها على السور الأكثر تركيبًا سوف يسمح باكتشاف وَحدة نَصّ حقيقية داخلها حتى وإن كانت أقلَّ وضوحًا.

فسورة المائدة، وهي من السور الطويلة التي تتطرَّق إلى عدَّة مواضيع، تتألَّف من شُعبَتيْن (1–71/72–120) تشمل كلاً منهما ثلاث شُعَب فرعيَّة نُظِمَت في تواز معكوس وِفقًا للشكل التالي:

أ (1–26)
ب (27–50)
جـ (51–71)

جـ′ (72–86)
ب′ (87–108)
أ′ (109–120)

وتُعالج الشُعَبتان الفرعيتان الطرفيَّتان (أ/أ′) موضوع الدخول في عهد الإسلام: دخول المؤمنين الذين قبِلوا العهد ورفض اليهود والمسيحيِّين لهذا الدخول (أ)، ودخول المسيحيين الذين قبلوا العهد أو دعوتهم إلى قبوله (أ′).

وتتميَّز الشعبتان الفرعيَّتان الوسَطيَّتان (ب/ب′) كلِّيًّا بالطابع التشريعي.

وتَتَناوَل الشعبتان الفرعيَّتان المتقاربتان (جـ/جـ′) موضوع علاقة أهل الكتاب مع الجماعة المُسلِمة.

ونظرًا لطول سورة المائدة لا يسَعْنا في هذا المقال تقديم المزيد من التفاصيل بشأنها [20]. بيد أنه من الممكن أن نوضِّح كيفيَّة تطبيق التحليل البلاغي على سورة أقصر نسبيًّا ومُركَّبة في الآن نفسه إلى حدٍّ كبير كسورة المدَّثِّر.

وجديرٌ بالذكر الإشارة إلى غياب التوافُق حول تقسيم هذه السورة بين المفسِّرين المسلمين وكذلك بين علماء الغرب.

فالمودودي مثلاً يقسِّم السورة في تفسيره إلى ستِ وحدات [21]:

1- الآيات 1-7 مقدِّمة، تعود إلى الحقبة المكِّيَّة (على اعتبار أنَّ بقيَّة السورة مدنيَّة)؛

2- الآيات 8-10 إنذار إلى الكافرين؛

3- الآيات 11-26 قصَّة رجل غنيّ يتَّفق التراث الاسلامي كلَّه على أنه وليد ابن المُغيرة الذي رفض الإيمان بدعوة الرسول حفاظًا على مصالحه الشخصيّة؛

4- الآيات 27-48 وصف للجحيم وللذين سيذهبون إليه؛

5- الآيات 49-53 جذور عدم الإيمان: غياب الخشية من الحياة الآخرة هو السبب الذي يدفع الناس إلى هجر القرآن؛

6- الآيات 54-56 خاتمة عقائدية.

أمَّا سعيد حوّى فيقسِّم في *الأساس في التفسير* سورة المدَّثِّر إلى ثلاث فقرات: 1-10/11-31/32-56.

ومن علماء الغرب، يُقسِّم ريجيس بلاشير [22] السورة إلى أربع وحدات: 1-7/8-10/11-37/38-56. فهو يعتبر السورة مكِّيَّة فيما عدا الآية 31 التي

---

[20] سوف نجد تحليلاً كاملاً لهذه السورة في الكتاب المُشار إليه في الحاشية 17.

[21] Abu A'la Maududi, *The Meaning of the Qurân, Islamic Publications*, Lahore, XV, p. 136-137.

يعتبرها إضافة مدنيَّة. في حين تُميِّز أنجليكا نويويِرْث، في دراستها لِبنْيـــة الســـور المكيِّة، ثلاث شُعَب في هذه السورة:

- الآيات 1-10 (وتتفرَّع إلى 1-7 و8-10)
- الآيات 11-48 (وتتفرَّع إلى 11-17 و18-26 و27-37 و38-48)
- الآيات 49-56.

أمَّا في ضوء التحليل البلاغي فنقترح التقسيم التالي:

1- مقدِّمة (1-10) تتألَّف من جُزئيْن (1-7/8-10)
2- سلسِلة (11-56أ) تتالَّف من ثلاثة مقاطِع (11-26/27-37/38-56أ) نُظِمَت في بناء محوري.
3- خاتمة وجيزة (56 ب - جـ)

1- مقدِّمة (1-10) [23]

تنقسم بوضوح هذه المجموعة من الآيات إلى جزئين مميَّزين تمامًـــا: فبعـــد المدخل في الآية الأولى تتألَّف الآيات 2-7 من مجموعة من الأوامر الموجَّهة للنبي في صيغة الأمر. في حين تؤلِّف الآيات 8 إلى 10 جملة واحدة مركَّبة فعلها مُفـــرد ماض مبني للمجهول.

---

[22] Régis Blachère.

[23] لن نقدِّم تحليلاً مُفصّلاً في هذا المقال للمستويات الصُغرى للنص (كالمفاصل والفروع).
وللاطلاع على التحليل البلاغي الكامل لهذه السورة يُرجى مراجعة:
« Structures rhétoriques de la sourate 74, *al-Muddaththir* », *Luqmân* n° 26, Téhéran, 1997, pp. 36-74

[يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1)]

قُمْ **فَأَنْذِرْ** (2)
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4)
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6)
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

فَإِذَا **نُقِرَ** فِي النَّاقُورِ (8)
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9)
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

وتُحيط بالجزء الأوّل (1–7) فكرتان سيتمّ شرحهما في بقيَّة السورة:

1- العظة القرآنية إنذارٌ للناس (آية 2)؛

2- دعوة إلى الزهد عن الخيرات الأرضيّة ودعوة إلى الثقة بالله (6–7)

ويرتبط الجزء الثاني (8–10) موضوعيًّا بالجزء الأوّل من خلال الفعل المَبْدئي (نُقِرَ) الذي يذكِّر بفعل أمر الآية الثانية (أنذر): ويعني هذان الفعلان الإعلان والإنذار: حيث يتسلَّم النبي رسالة إنذار الناس (2) من الخطر الذي يتهدَّدهم إذا لم يؤمنوا (6–7). فالجزء الثاني يوضِّح إذاً معنى الجزء الأوَّل: إن الأمر الذي دُعِي النبي لإعلانه هو شدَّة اقتراب سماع بوق اليوم الأخير.

2- السِلسِلة (11-56أ)

تنقسم هذه السِلسِلة إلى ثلاثة مقاطِع (11-26/27-37/38-56أ)

المقطع الأول (11-26)

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12)وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) **سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** (17) --------------------------- إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** (26)

يتألَّف المقطع الأول من قسمين: الأول عبارة عن وصف لنعم الله على الغَني الذي يردُّ النعمة بالبطر (11-17)، ثمَّ القسم الثاني الذي يصف ريبة الغنـــي مـــن

دعوة النبي (18–26). وينتهي كِلا القسمين بمفصل تهديدي (17 و26) شديد الشبه بالآخر في الشكل والمضمون.

وقد نُظِمَ القسمان في توازٍ:

القسم الأول	القسم الثاني
عمل الله المُحْسِن (11–14)	موقف الإنسان الذي ينزع إلى الشك (18، 21–23)
رد الإنسان الجاحد للمعروف (15)	رد فعل الله هو ردٌّ عادل (19–20)
اتهام الإنسان بعدم تمييز آيات الله (16)	تعبير الإنسان عن ريبته من كلام الله (24–25)
التهديد بالعقاب الإلهي (17)	التهديد بالعقاب الإلهي (26)

ويمكننا أن نلاحظ صلة القسم الأول – الذي يدين طمع الرجل الغني – بفكرة الآيتين 6 و7 في المقدَّمة: "ولا تَمْنُن تسْتَكْثِر ولربِّكَ فاصْبِر"، أمَّا القسم الثاني الذي يصف ريبة الإنسان من دعوة النبي فهو في صِلة تعارض مع الآية الثانيـــة: "قُــم فأنْذِر".

المقطع الثاني (27–37)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ **لِلْبَشَرِ** (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى **لِلْبَشَرِ** (31)

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا **لِلْبَشَرِ** (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

يُعَدُّ هذا المقطع عرضٌ مُستفيضٌ لـــ"سقر" (وهي المستوى السادس في الجحيم حسب التراث). كما أن هذا اللفظ يربط بين هذا القسم والقسم السابق الذي ينتهي بالكلمة نفسها.

وينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة أقسام (27–30/31/32–37)، ينتهي كل قسم منها بعبارة "للبَشر" (29، 31، 36). فهذه العبارة تفيد كمؤشِّر لتقسيم المقطع إلى ثلاثة أقسام.

ويتجاوب القسمان الطرفيَّان بشكل كبير: حيث نجد في القسم الثالث (35–37) تتِمّة الإجابة عن سؤال الآية 27 ("وَما أدْراكَ ما سَقَر") التي بدأت في القسم الأوّل (28–30). وتأتي هذه التتمَّةُ بعد القَسَم التأكيدي الثلاثي (32–34).

أمَّا القِسم الثاني وهو القِسم المركزي (آية 31) فقد نُظمَ في جُزئين يحيطان مِفصل مركزي

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ **إِلَّا *مَلَائِكَةً***	أ
وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ **إِلَّا** فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا	ب
لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ	ج
وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا	د
وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ	هـ
وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ	و
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا	ز
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ	ح
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ	ط
وَمَا يَعْلَمُ ***جُنُودَ رَبِّكَ*** **إِلَّا** هُوَ	ك
وَمَا هِيَ **إِلَّا** ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31)	ل

وتتشابه أفرع القسم الطرفيَّة بوضوح: فصيغة "وما... إلاَّ" تكررَّت مرّتين في بداية القسم ومرّتين في نهايته أيضًا. أمَّا إذا راجعنا الكلمات فسوف نلاحظ وجود ترادف بين "مَلائِكَة " و"جُنُود ربِّكَ". وتقودنا هذه التشابهات إذن إلى التقرير بأن هذين الفرعين يكوِّنان إطارًا واضحًا لهذا القسم.

من الواضح إذن أن القسم الثاني قد نُظِم في بناء محوري:

1– أمور خاصة بالملائكة (أ)

2– أمور خاصة بالمؤمنين وأهل الكتاب، من جهة، والكُفَّار من جهة أخرى. وقد نُظِم هذا الجزء في تواز معكوس:

أ الذين كفروا (مِفْصل ب)

ب أهل الكتاب... والذين آمنوا (جـ ، د)

ب′ أهل الكتاب والمؤمنون (هـ)

أ′ الذي سقمت قلوبهم والكفَّار (و)

مركز: موضوع المعترضين (ز)

2′– أمور خاصة بالضالين والمهتدين (ح– ط)

1′– أمور خاصة بجنود الربّ

في التحليل البلاغي للقرآن (كما هو الحال في الكتاب المقدَّس) يَتَمَحْوَر سؤالٌ في مركز البناء المحوري كما هو الحال هنا. فهذا السؤال يعطي المعنى للآية 31 بجملتها والتي تُعتَبَر بكاملها إجابة عن هذا السؤال.

وتوضِّح لنا بنْيَة هذه الآية الفرق بين المنطق اليوناني والمنطق الساميّ الذي نعتقد أنه يوجِّه النظْم في القرآن. فبحسب المنطق اليوناني لأصبَحَ ترتيب النصّ كما يلي:

1- طرح الإشكاليَّة: الآية 30 التي تعبِّر عن المشكلة

2- السؤال حول هذه الإشكاليَّة

3- الإجابة عن السؤال

بَيْدَ أن النَصّ القرآني لا يَطرح السؤال مباشرةً بعد الإشكالية بل أبعد بكثير... إنه يطرح السؤال في مرْكَز النَصّ (31ز). وبالمُقابَل فإنَّ الإجابة هي التـــي تـــأتي مباشرةً (31 أ،ب)، بل تأتي مرَّتين: مرَّة أولى في بداية القَسَم (أ،ب) ومرَّة ثانية في نهايته (ك، ل). فهذا هو بالفعل المنطق الساميّ بطريقته "الدائريَّـــة" فـــي توجيـــه الخطاب.

المقطع الثالث (38-56)

يتألَّف هذا النَصّ من قسْمَيْن، الأوَّل يتعلَّق هو أيضًا بـــ"سَقَر" والثاني بالقرآن. ويصل بين القسمين مفْصلان متشابهان جدًّا على مستوى الشَكْل:

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49)

إذ يبدأ المِفصلان بنفس الصيغة الصوتية "فما" التي يتبعُها اســـمان مؤنَّثـــان ("شفاعة"، "تذكِرة") واسما فاعل بقافية *"ين"*.

ودون مزيد من الإسهاب في تفصيل نَظْم هذا المقطع نكتفي بالتأكيـــد علـــى التوازي الحاضر بينه وبين المقطع الأوَّل. فقصَّة الرجل الغني الجاحد التي قـــدَّمها المقطع الأوَّل هي أفضل مثال لِما سيصيب جميع الذين ســـينحرِفون عـــن دعـــوة القرآن.

وسنجد في كلاً من المقطعين ما يَلي:

- **القسمان الأوَّلان،** بعد مِفْصل مقدِّمة (38/11)، يصفان إحسانات الله: هنا في الحياة الدنيا (12-14) / وفي الحياة الآخرة (39-41). يتبع ذلك وصفُ الله

لتذمُّر الكافر (15–16) / ووصف الكفَّار أنفسهم لتَذَمُّرِهِم (43–46). وينتهي القسمان بمِفْصل تهديدي (17/48).

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39)

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)
مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42)

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43)
وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44)

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)
وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)
حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47)

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49)
كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50)
فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52)

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53)
كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54)

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55)
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ] (56)

- **القسمان الثانيان** يصفان الفرار من دعوة القرآن: فرار الغني المُرتاب (18، 21–23) / وفرار جميع المُتذمِّرين (49–52، مقارنة مع الحمار الذي يهرب من الأسد). وتَصْريحات المُرتاب الذي يَعْتَبِر القرآن "سِحرًا يُؤثَر" و"قَوْل البَشَر" (24–25) يقابلها طِباقٌ بالتضاد هو التأكيد بأن القرآن تذكِرة (54–56أ): ويقترِن في الحالتين التصريحُ بالتهديد بالعقاب الأبدي (وذلك بعد الآية 26 أو قبل الآية 53).

3- خاتمة السورة

تنتهي السورة بخاتمة عقائدية وجيزة: "هو أهــلُ التَّقْــوى وأهْــلُ المغفِــرة" (56ب،جـ)

ويشير البقاعي إلى علاقة هذه العبارة ببداية السورة التي بدأت بإنذار للإنسان المُتَذَمِّر لتنتهي ههنا بخبر الغُفران الذي يمنحه الله للذي يعود إليــه فــي الخشــية والطاعة.

وبناءً على ما تقدَّم تتجلَّى البنية الكُلِّيَّة للسورة كما تبينه اللوحة التالية.

من الواضح أن بنْيَة هذه السورة تتميَّز بشدَّة التركيب إلاَّ أنها تتميّز في الوقت ذاته بشدَّة الاتِّزان من خلال سلسلة من التوازيات. ويجدر بنا أن نلاحظ أن نَــصّ هذه السورة لا يتطورّ من خلال المنطق الخطِّي الذي يُمَيِّز البلاغة اليونانيّة. ولأن جميع المفَسِّرين – القديم والحديث منهم – قد ورثوا المنطق الخطّي عــن البلاغــة اليونانيَّة، فقد ظلُّوا يواجهون صعوبات جَمَّة في إدراك تسلسل المواضيع المكوِّنــة لهذه السورة.

وعلى العكس إذا اتَّبعنا نَهْج البلاغة الساميَّة التي تتأسَّــس علــى الأشــكال الثلاث لنَظْم التوازي – وهي التوازي والتوازي المعكوس والبنــاء المحــوريَّ – لتجلَّت لنا حينئذٍ وَحدة السورة المعقَّدة في تركيبها والجميلة في بلاغتها وقد تأسَّست

على نظْم التوازي، ووَضَحَت معانيها التي اغتنت بالتناظر القائم بين الوحدات النصيِّة المختلِفة حيث تصبح الواحدة منها صدًى للأخرى.

1- المقدِّمة (1-10)

2- مقطع أوّل (11-26): أ- قسم أوّل (11-17)
ب- قسم ثاني (18-26)

3- مقطع ثاني (27-37): أ (27-30)
ب (31أ)
جـ (31ب-و)
مركز (31ز)
جـ′ (31ح- ط)
ب′ (31ي ك)
أ′ (32-37)

2′- مقطع ثالث (38-56أ): أ′- قسم أوّل (38-48)
ب′- قسم ثاني (49-56أ)

1′- الخاتمة (56جـ)

6- الخاتمة:

بما أن القرآن عربيٌّ لُغةً ونَحْوًا فمن البديهي أن يَقتَبِس في طريقة نَظْم خطابه من التراث العربي، بل ومن التراث الساميّ نفسه. ومن المُستَغرَب أن المنظِّرين الذين درسوا النَصّ القرآني من وجهة نظر فن البلاغة والفصاحة لم يلجؤوا إلى مبادئ البلاغة الساميَّة وبَدوا وكأنهم تجاهلوا ما للتوازي من أهمّيّة كبيرة في نَظْم النَصّ القرآني. وقد يبرِّر هذا النهْجَ تبنِّي الثقافة الأدبية العربيّة السريع لمنطق البلاغة اليونانية وما نَتَجَ عنه من سَتْرٍ تام لتراث البلاغة الساميّة التي تختلف كثيرًا عنها. وبالفعل يمكننا أن نلاحظ بعض آثار الفكر اليوناني في نَهْج البحث عن روابط بين الآيات والسور – النهج الذي سلكه الزركشي والسيوطي والبقاعي وآخرون –، وهذا النهْج البحثي قائم على أساس وجود منطق خَطِّي مُلازِم للنصّ وهو ما يفرضه المنطق اليوناني والبلاغة اليونانيّة. بَيْدَ أن خلاصة التحليل الذي أجراه كاتب المقال لثلاثين من السور القرآنية تقودُنا إلى تأكيد انتشار منطق التوازي لا المنطق الخطِّي. ومن البديهي أن نتساءل إذًا إن كان منطق التوازي، لا المنطق الخطِّي يُميِّز نَظم القرآن كلّه أيضًا؟ إن البحث مستمر...

وإن صحَّ قول أفلوطين [24] – الذي أكَّد ما قاله آخرون – أن "جميع الناس يقرُّون أن الجمال المرئي يتألَّف من تَوازي الأجزاء فيما بينها وفي علاقتها بالشكل الكُلِّي" وأن "جمال الكائنات يكمن في تَوازيها واعتدالها"، لَساعَدنا هذا القول على إدراك قيمة التوازي في نَظْم القرآن إذ يساهم التوازي بقدر كبير في بَثّ شعور خفي بوجود توازن وجمال في النَصّ، حتى وإن بَدا هذا التوازي مستترًا في كثير من الأحيان.

و اليوم يقِرُّ جميع المهتمّين بالنظريَّة الأدبيَّة بأهمِّيَّة نظريَّة النَظْم لدى عبد القاهرالجرجاني الذي اعتبَر أن جمال وفصاحة النَصّ (وعلى نحوٍ خاص النَصّ

---

[24] أفلوطين، *التساعية الأولى* عن الجمال.

القرآني) ينبعان لا من الكلمات ولا من المعاني في حدّ ذاتهـا، بـل مـن تفاعُـل العناصر الدلاليَّة المكوِّنة للبنية الأدبية والمُرَتَّبة حسب بناء محدَّد يُسـمَّى الـنَظْم. ونعتقد أن التحليل البلاغي كما عرضناه في هذا المقال يُشَكِّل بكل وضوح امتـدادًا لهذه النظريَّة.

وإن أنواع التوازي والبِناء المِحْوَري العَكْسي (أو التَوازي المعكوس) والبناء المِحوري التي تؤلِّف بنْية النَصّ في مستوياته المختلفة (كالفروع والأجزاء والأقسام والمقاطع، الخ...) تشكِّل أنماطًا من النَظْم تتجاوب العناصر داخلها وفيما بينها مـن خلال التوازي. وإن إبراز البُنَى السطحيَّة (أي أشكال التوازي في الـنَصّ) يبـرز بدوره بُنَى المعنى العميقة التي تتولَّد من خلال التأثير المتبادَل لعناصر النَصّ مـن خلال علاقاتها المُشْتَرَكَة. فكما يقول الجرجاني فإن العنصر الواحد في الـنَصّ لا يجد معناه إلاَّ داخل سياقه: سياقه المُباشِر بل وسياقه الأوْسع أيضًا. وفي التحليـل البلاغي تُمَثِّل مستويات النَصّ المختلفة أشكالاً متنوِّعة من السياق يُمْكِنها بدورها أن تُعدِّل وأن تُغني معنى الكلمات.

ويضيف الجرجاني أن الكلمة الواحدة تَحتَمِل أكثر من مَدْلول وأن بنْيَة السياق الخاص بها هي التي تَنْتَقي المَعْنى الأنْسَب للكلمة [25]. وهذا هو السبب الذي دفعنـا إلى الاقتناع بأن تحديد النَظْم البلاغي للسورة الواحِدة هو مرحلة ضـروريَّة نَحـو تفسير النَصّ.

[25] الجرجاني، *كتاب دلائل إعجاز القرآن*، القاهرة 1366 هـ/1946 م، ص 290–294.